بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير

سورة هود

بقلم

سليمان بن محمد اللهيميد

١ / رمضان / ١٤٣٩هـ

مقدمة

قال ابن عاشور : سميت في جميع المصاحف وكتب التفسير والسنة سورة هود ، ولا يعرف لها اسم غير ذلك ، وكذلك وردت هذه التسمية عن النبي ﷺ في حديث ابن عباس أن أبا بكر قال : طيا رسول الله قد شبت ، قال : شيبتني هود ، والواقعة ، والمرسلات ، وعم يتساءلون ، وإذا الشمس كورت .

وسميت باسم هود لتكرر اسمه فيها خمس مرات ، ولأن ما حكي عنه فيها أطول مما حكي عنه في غيرها ، ولأن عاداً وصفوا فيها بأنهم قوم هود في قوله (أَلا بُعْداً لِعَادٍ قَوْمِ هُود) .

- **قال القرطبي** بعد أن ساق بعض الأحاديث في فضل هذه السورة. ففي تلاوة هذه السور ما يكشف لقلوب العارفين سلطانه وبطشه فتذهل منه النفوس. وتشيب منه الرءوس .
- **قال ابن عاشور** : جمهور العلماء على أن سورة هود جميعها مكية .
- أغراضها :

قال ابن عاشور : ابتدأت بالإيماء إلى التحدي لمعارضة القرآن بما تومئ إليه الحروف المقطعة في أول السورة.

وباتلائها بالتنويه بالقرآن.

وبالنهي عن عبادة غير الله تعالى.

وبأن الرسول عليه الصلاة والسلام نذير للمشركين بعذاب يوم عظيم وبشير للمؤمنين بمتاع حسن إلى أجل مسمى.

وإثبات الحشر.

والإعلام بأن الله مطلع على خفايا الناس.

وأن الله مدبر أمور كل حي على الأرض.

وخلق العوالم بعد أن لم تكن.

وأن مرجع الناس إليه ، وأنه ما خلقهم إلا للجزاء.

وتثبيت النبيء ﷺ وتسليته عما يقوله المشركون وما يقترحونه من آيات على وفق هواهم (أَنْ يَقُولُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ) .

وأن حسبهم آية القرآن الذي تحداهم بمعارضته فعجزوا عن معارضته فتبين خذلانهم فهم أحقاء بالخسارة في الآخرة.

وضرب مثل لفريقي المؤمنين والمشركين.

وذكر نظرائهم من الأمم البائدة من قوم نوح وتفصيل ما حل بهم وعاد وثمود ، وإبراهيم ، وقوم لوط ، ومدين ، ورسالة موسى ، تعريضا بما في جميع ذلك من العبر وما ينبغي منه الحذر فإن أولئك لم تنفعهم آلهتهم التي يدعونها.

وأن في تلك الأنباء عظة للمتبعين بسيرهم.

وأن ملاك ضلال الضالين عدم خوفهم عذاب الله في الآخرة فلا شك في أن مشركي العرب صائرون إلى ما صار إليه أولئك.

وانفردت هذه السورة بتفصيل حادث الطوفان وغيضه.

(الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (١))

[هود : ١] .

(**الر**) هذه من الحروف المقطعة وقد تقدم الكلام عليها .

فقيل : هِيَ مِمَّا اسْتَأْثَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِعِلْمِهِ ، **وَقِيلَ**: هِيَ أَسْمَاءٌ لِلسُّوَرِ الَّتِي افْتُتِحَتْ بِهَا ، **وَقِيلَ**: هِيَ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى،

قال الشنقيطي : أَمَّا الْقَوْلُ الَّذِي يَدُلُّ اسْتِقْرَاءُ الْقُرْآنِ عَلَى رُجْحَانِهِ فَهُوَ: أَنَّ الْحُرُوفَ الْمُقَطَّعَةَ ذُكِرَتْ فِي أَوَائِلِ السُّوَرِ الَّتِي ذُكِرَتْ فِيهَا بَيَانًا لِإِعْجَازِ الْقُرْآنِ، وَأَنَّ الْخَلْقَ عَاجِزُونَ عَنْ مُعَارَضَتِهِ بِمِثْلِهِ مَعَ أَنَّهُ مُرَكَّبٌ مِنْ هَذِهِ الْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ الَّتِي يَتَخَاطَبُونَ بِهَا .

قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: وَإِلَيْهِ ذَهَبَ الشَّيْخُ الْإِمَامُ الْعَلَّامَةُ أَبُو الْعَبَّاسِ بْنُ تَيْمِيَةَ، وَشَيْخُنَا الْحَافِظُ الْمُجْتَهِدُ أَبُو الْحَجَّاجِ الْمِزِّيُّ، وَحَكَاهُ لِي عَنِ ابْنِ تَيْمِيَةَ.

وَوَجْهُ شَهَادَةِ اسْتِقْرَاءِ الْقُرْآنِ لِهَذَا الْقَوْلِ: أَنَّ السُّوَرَ الَّتِي افْتُتِحَتْ بِالْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ يُذْكَرُ فِيهَا دَائِمًا عَقِبَ الْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ الِانْتِصَارُ لِلْقُرْآنِ وَبَيَانُ إِعْجَازِهِ، وَأَنَّهُ الْحَقُّ الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ.

قَالَ تَعَالَى فِي «الْبَقَرَةِ» (الم ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ) .

وَقَالَ فِي «آلِ عِمْرَانَ» (الم اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ) .

وَقَالَ فِي «الْأَعْرَافِ» (المص كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ) .

وَقَالَ فِي سُورَةِ «يُونُسَ» (الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ) .

وَقَالَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ سُورَةَ «هُودٍ» (الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ) .

(**كِتَابٌ**) والمراد به القرآن العظيم .

ووسمي القرآن كتاباً:

لأنه مكتوب في اللوح المحفوظ: كما قال تعالى (بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ. فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ).

وهو مكتوب في الصحف التي بأيدي الملائكة: قال تعالى (فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ. فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ. مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ)

وهو مكتوب في الصحف التي بأيدينا، ونقرؤه من هذه الكتب.

(**أُحْكِمَتْ**) أي : هذا الكتاب الذي أنزلناه إليك يا محمد، هو كتاب عظيم الشأن، جليل القدر، فقد أحكم الله آياته إحكاما بديعا، وأتقنها إتقانا معجزا، بحيث لا يتطرق إليها خلل أو فساد.

- **قال القرطبي** : أحسن ما قيل في معنى (أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ) قول قَتَادة ؛ أي جعلت محكمة كلّها لا خَلَل فيها ولا باطل.

والإحكام منع القول من الفساد ، أي نُظمت نظماً مُحْكَماً لا يلحقها تناقض ولا خَلَل.

- فمن إحكامه : أن الآيات الواردة فيه غير متناقضة ، والتناقض ضد الإحكام فإذا خلت آياته عن التناقض فقد حصل الإحكام.

وأيضاً : ألفاظ هذه الآيات بلغت في الفصاحة والجزالة إلى حيث لا تقبل المعارضة ، وهذا أيضاً مشعر بالقوة والإحكام.

- إشكال وجواب :

في هذه الآية وصف القرآن كله بأنهم محكم .

وجاء في آية ثانية وصفه بأنه متشابه : قال تعالى (اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ) .

وجاء في آية أخرى وصفه بأن منه محكم ومنه ما هو متشابه : قال تعالى (هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ) .

والجواب :

فقوله (كِتَابٌ أُحْكِمَتْ) الإحكام العام ، فالقرآن كله محكم ، أي : أنه متقن في ألفاظه ، ومعانيه ، وإعجازه ، أخباره صدق ، وأحكامه عدل ، لا تعتريه وصمة ولا عيب .

وأما القرآن كله متشابه : أي أن آياته يشبه بعضها بعضاً في الحسن ، والصدق ، والحق ، والإعجاز ، والسلامة من جميع العيوب وأما وصغ القرآن بأن بعضه محكم وبعضه متشابه في قوله تعالى (مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ) فالمراد به الإحكام الخاص ، والتشابه الخاص .

المحكم الواضح المعنى الظاهر الدلالة ، والمتشابه : ما لا يتضح معناه ، أو لا تظهر دلالته

(**ثُمَّ فُصِّلَتْ**) أي : ثم فصل- سبحانه- هذه الآيات تفصيلا حكيما، بأن أنزلها نجوما، وجعلها سورا سورا، مشتملة على ما يسعد الناس في دنياهم وآخرتهم، من شئون العقائد، والعبادات، والمعاملات، والآداب، والأحكام.

- **قال الرازي** : قوله تعالى (ثم فُصّلَتْ) فيه وجوه :

أحدها : أن هذا الكتاب فصل كما تفصل الدلائل بالفوائد الروحانية ، وهي دلائل التوحيد والنبوة والأحكام والمواعظ والقصص.

والثاني : أنها جعلت فصولاً سورة سورة ، وآية آية.

الثالث : (فُصّلَتْ) بمعنى أنها فرقت في التنزيل وما نزلت جملة واحدة ، ونظيره قوله تعالى (فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ءايات مّفَصَّلاَتٍ) والمعنى مجيء هذه الآيات متفرقة متعاقبة.

الرابع : فصل ما يحتاج إليه العباد أي جعلت مبينة ملخصة.

الخامس : جعلت فصولاً حلالاً وحراماً ، وأمثالاً وترغيباً ، وترهيباً ومواعظ ، وأمراً ونهياً لكل معنى فيها فصل ، قد أفرد به غير مختلط بغيره حتى تستكمل فوائد كل واحد منها ، ويحصل الوقوف على كل باب واحد منها على الوجه الأكمل.

- **قال ابن كثير** : أي: هي محكمة في لفظها، مفصلة في معناها، فهو كامل صورة ومعنى .

(**مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ**) أي: من عند الله الحكيم في أقواله، وأحكامه .

- والحكيم اسم من أسماء الله تعالى .

قال ابن كثير: الحكيم في أفعاله وأقواله فيضع الأشياء في محالها بحكمته وعدله.

- قال ابن القيم: وقد دلت العقول الصحيحة والفطر السليمة على ما دل عليه القرآن والسنة: أنه سبحانه (حكيم) لا يفعل شيئاً عبثاً ولا لغير معنى ومصلحة وحكمة هي الغاية المقصودة بالفعل، بل أفعاله سبحانه صادرة عن حكمة بالغة، لأجلها فعل كما فعل كما هي ناشئة عن أسباب بها فعل.
- وقال السعدي: فالله لا يخلق شيئاً عبثاً، ولا يشرع سدى، الذي له الحكم في الأولى والآخرة، وله الأحكام الثلاثة لا يشاركه فيها مشارك، فيحكم بين عباده في شرعه، وفي قدره، وجزائه، والحكمة: وضع الأشياء مواضعها، وتنزيلها منازلها.

هو سبحانه حكيم في صنعه، وحكيم في شرعه، فجميع مصنوعاته كلها محكمة، قال تعالى (الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ) وأما في الشرع فيقول سبحانه (أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً) فلا يمكن أن يوجد تناقض في القرآن أبداً.

- قال بعض العلماء: الحكمة تكون في صورة الشيء: أي أن خلق الإنسان على هذه الصورة لحكمة، وكذلك خلق الحيوان على هذه الصورة لحكمة.

وتكون في غايته: أي: أن الغاية من خلق الإنسان لحكمة، وكذلك الحيوانات، وكذلك جميع المخلوقات، كما قال تعالى (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً).

- نستفيد من معرفتنا أن الله حكيم في كل أفعاله: اقتناع الإنسان بما يجري عليه وما يوجبه الله عليه، لأن ما يجريه الله –عز وجل– من الأحكام مقرون بالحكمة، فإذا علمت هذا يقينياً اقتنعت سواء كان هذا من الأحكام الكونية أو الأحكام الشرعية، حتى المصائب التي تنال العباد لاشك أن لها حكمة.

رابعاً: الرضا بالقضاء والقدر. ؟؟؟

(**خَبِيرٍ**) الخبير بعواقب الأمور.

أي : هذا الكتاب الذي أتقنت آياته إتقانا بديعا، وفصلت تفصيلا رصينا، ليس هو من عند أحد من الخلق، وإنما هو من عند الخالق الحكيم في كل أقواله وأفعاله، الخبير بظواهر الأمور وبواطنها.

- **قال الشوكاني:** وفي قوله مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ لف ونشر، لأن المعنى: أحكمها حكيم، وفصلها خبير، عالم بمواقع الأمور .
- **والخبير اسم من أسماء الله تعالى .**

ومعناه العليم ببواطن الأمور ، (المطلع على بواطن الأمور ودقائقها وخفياتها) ، المطلع على السرائر والضمائر وخفايا الأمور.

- قال ابن عاشور: الخبير العالم بدقائق الأمور المعقولة والمحسوسة ، والظاهرة والخفية.
- الآثار المترتبة على معرفتنا لهذا الاسم:

أولاً: يجب على الإنسان أن يحذر من كتم النفاق أو الحسد أو غيرها من أمراض القلوب ، لأن الله مطلع على كل شيء ، لا تخفى عليه خافية.

ولذلك أمرنا سبحانه أن نتقيه ونعمل بما يحب ، وأن نبتعد عن كل ما يسخطه ويغضبه ، فقال تعالى (وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً).

وقال تعالى (واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون).

وقال سبحانه (وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً).

ثانياً: وجوب مراقبة الله تعالى.

ثالثاً: أن الله خبير بأحوال عباده ، بصير بمن يستحق الهداية منهم ممن لا يستحقها ، بصير بمن يصلح حاله بالغنى والمال ، وبمن يفسد حاله بذلك (وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ).

رابعاً: اليقين بأن الله هو الخبير العالم ببواطن الأمور وخفياتها ، عالم بما كان وما يكون وما سيكون وما لم يكن كيف كان سيكون .. ، لا يفوته من العلم شيء وان كان صغيراً سراً دقيقاً ، وهذا لله وحده لا يشاركه فيه أحد من خلقه.

والإيمان بأن الله خبير عليم بأعمال عباده وأقوالهم، وما يجول في صدورهم من خير أو شر، قال تعالى (وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً) فيوقن العبد أنه مكشوف أمام الله، لا تخفى على الله منه خافية، فيراقب الله في جميع أحواله وخواطره وقلبه بتهذيب سره وتطهير باطنه، ويخلص أعماله لله .

قال الشيخ ابن عثيمين: وقرن تعالى هنا بين الحكيم والخبير (وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِير) ليعلم الناس أن حكمة الله عز وجل عن خبرة وعلم ببواطن الأمور ، وعلى هذا فقد تكون خفية عن كثير من الناس ، لأنه لا يدرك الحكمة إلا

من كان خبيراً.

الفوائد :

١- بيان إعجاز هذا القرآن العظيم .

٢-أن من أسماء القرآن الكتاب .

٣-الثناء العظيم على القرآن بأنه محكم .

٤- وجوب الإيمان القطعي بأن القرآن محكم كامل لا خلل فيه ولا نقص .

٥- أن إيمان المسلم بذلك يزيده قوة وارتباطاً بالقرآن وتمسكاً به .

٦- من أسماء الله الحكيم .

٧- وجوب الاستسلام لأوامر الله وأحكامه ، لأنه صادرة من حكيم خبير مطلع على كل شيء .

(أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ (٢))

[هود : ٢] .

(**أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ**) جملة تعليلية، أي : أنه- سبحانه- فعل ما فعل من إحكام الكتاب وتفصيله وتنزيله من لدن حكيم خبير، لكي تخلصوا له العبادة والطاعة، وتتركوا عبادة غيره لأن من أنزل هذا الكتاب المعجز، من حقه أن يفرد بالخضوع والاستعانة.

- **قال ابن كثير** : أي نزل هذا القرآن المحكم المفصل لعبادة الله وحده لا شريك له .

كما قال تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إلا أَنَا فَاعْبُدُونِ) .

قال تعالى (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولا أَنِ اُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ) .

- **قال الشنقيطي** : هذه الآية الكريمة فيها الدلالة الواضحة على أن الحكمة العظمى التي أنزل القرآن من أجلها: هي أن يعبد الله جل وعلا وحده، ولا يشرك به في عبادته شيء، لأنه قوله جل وعلا (كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ * أَلاَّ تعبدوا إِلاَّ الله) الآية؛ صريح في أن آيات هذا الكتاب فصلت من عند الحكيم الخبير لأجل أن يعبد الله وحده .

فمعنى الآية: أن حاصل تفصيل القرآن هو أن يعبد الله تعالى وحدة ولا يشرك به شيء. ونظير هذا المعنى قوله تعالى في سورة الأنبياء (قُلْ إِنَّمَآ يوحى إِلَيَّ أَنَّمَآ إلهكم إله وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُمْ مُّسْلِمُونَ) ومعلوم أن لفظه (إنما) من صيغ الحصر ، فكأن جميع ما أوحي إليه منحصر في معنى (لا إله إلا الله) لأن معناها. خلع جميع المعبودات غير الله جل وعلا في جميع أنواع العبادات ، وإفراده جل وعلا وحده بجميع أنواع العبادات ، فيدخل في ذلك جميع الأوامر والنواهي القولية والفعلية والاعتقادية.

والآيات الدالة على أن إرسال الرسل ، وإنزال الكتب لأجل أن يعبد الله وحده كثيرة جداً .

كقوله (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) .

وقوله (وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نوحي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إله إِلاَّ أَنَاْ فاعبدون) .

- وأصل العبادة في لغة العرب: الذل والخضوع، وقيل للعبد (عبد) لذله وخضوعه لسيده، فالعبادة: الذل والخضوع على وجه المحبة خاصة، فلا تكفي المحبة دون الذل والخضوع، ولا يكفي الذل والخضوع دون المحبة، لأن الإنسان إذا كان ذله متجرداً عن محبة الله يُبغض الذي هو يذل له، ومن أبغض ربه هلك، وإذا كانت محبةً خالصة لا خوف معها، فإن المحب الذي لا يُداخله خوف يحمله الدلال على أن يسيء الأدب، ويرتكب أموراً لا تنبغي، والله عز وجل لا يليق به شيء من ذلك (قاله الشنقيطي).

- فالعبادة تطلق على معنيين: احدهما: التعبد: يعني التذلل لله، كما سبق.

وتطلق على المتعبد به (بالنسبة لأفعال العباد) وهي: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة القلبية والجوارحية. (ذكر ذلك ابن تيمي

- وجوب عبادة الله تعالى ، وقد جاءت النصوص الآمرة بذلك:

قال تعالى (وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً).

وقال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ).

وقال تعالى (فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا).

وقال تعالى (وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً).

وقال تعالى (بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ).

وقال تعالى (فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ).

- وأمر تعالى بعبادته حتى الموت فقال تعالى (وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ).
- بل الناس ما خلقوا إلا لعبادة الله تعالى كما قال تعالى (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ).
- وأمر الله بها جميع رسله:

كما قال نوح لقومه (اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ)، وكذلك قال هود، وصالح، وشعيب، وغيرهم.

- وأخبر الله أنه أرسل في كل أمة رسولاً لهذا الغرض.

قال تعالى (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ).

- ووصف ملائكته بذلك.

فقال تعالى (وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ).

ونعت صفوة خلقه بالعبودية له:

فقال تعالى (عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً) وقال تعالى (وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً).

- وقد نعت الله نبيه بالعبودية في أكمل أحواله:

فقال في الإسراء (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً).

وقال في الإيحاء (فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى).

وقال في الدعوة (وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً).

وقال في التحدي (وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ).

(**إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ**) بيان لوظيفة الرسول ﷺ .

قال ابن كثير : أي إني لكم نذير من العذاب إن خالفتموه، وبشير بالثواب إن أطعتموه، كما جاء في الحديث الصحيح: أن رسول الله ﷺ صعد الصفا، فدعا بطون قريش الأقرب ثم الأقرب، فاجتمعوا، فقال يا معشر قريش، أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً تصبحكم ، ألستم مصدقي؟" فقالوا: ما جربنا عليك كذبا. قال: "فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد .

الفوائد :

١- وجوب عبادة الله تعالى .

٢- أن أعظم ما أمر الله به هو التوحيد ، وهو إفراد الله بالعبادة .

٣- تحريم عبادة غير الله .

٤-أن مهمة الرسل الإنذار والتبشير .

٥- تحذير وتهديد كل من عبد غير الله .

٦- تبشير كل من عبد الله واتقاه .

(وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ (٣)) .

[هود : ٣] .

(**وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ**) أي: وآمركم بالاستغفار من الذنوب السالفة والتوبة منها إلى الله عز وجل فيما تستقبلونه، وأن تستمروا على ذلك .

- وهذا معطوف على قوله (ألا تعبدوا) من عطف الأمر على النهي .

والاستغفار طلب المغفرة ، والغفر الستر والتغطية ، والمراد ستر الأمور وتغطيتها بعفو الله تعالى .

(**ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ**) أي : ارجعوا إليه تائبين من كل ذنب ، بالندم ، والإقلاع عن المعصية ، والعزم على عدم العودة .

- وفائدة الترتيب (بثم) أن يكون قد يستغفر ثم يبقى متلبساً بالذنوب .
- **قال ابن القيم** : الاستغفار نوعان :

مفرد ومقرون بالتوبة .

فالمفرد : كقول نوح عليه السلام لقومه : (فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً . يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً) . وكقول صالح لقومه (لَوْلا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) .

والمقرون كقوله تعالى (اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعاً حَسَناً إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ). وقول هود لقومه (اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً). .

فالاستغفار المفرد كالتوبة بل هو التوبة بعينها مع تضمنه طلب المغفرة من الله وهو محو الذنب وإزالة أثره ووقاية شره ، فالاستغفار يتضمن التوبة والتوبة تتضمن الاستغفار ، وكل منهما يدخل في مسمى الآخر عند الإطلاق .

وأما عند اقتران إحدى اللفظتين بالأخرى فالاستغفار: طلب وقاية شر ما مضى، والتوبة : الرجوع وطلب وقاية شر ما يخافه في المستقبل من سيئات أعماله، فها هنا ذنبان: ذنب قد مضى فالاستغفار منه ، طلب وقاية شره وذنب يخاف وقوعه ، فالتوبة : العزم على أن لا يفعله ، والرجوع إلى الله يتناول النوعين : رجوع إليه ليقيه شر ما مضى ورجوع إليه ليقيه شر ما يستقبل من شر نفسه وسيئات أعماله .

(**يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا**) هذه ثمرة الاستغفار والتوبة ، أي يمتعكم بالمنافع من سعة الرزق ورغد العيش ، ولا يستأصلكم بالعذاب كما فعل بمن أهلك قبلكم.

أي: في الدنيا ، بأن يبدل خوفكم أمنا، وفقركم غنى، وشقاءكم سعادة.

فالْمُرَادَ بِالْمَتَاعِ الْحَسَنِ : سَعَةُ الرِّزْقِ ، وَرَغَدُ الْعَيْشِ ، وَالْعَافِيَةُ فِي الدُّنْيَا ، ومثله الحياة الطيبة المذكورة في قوله تعالى (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) .

- **قال الشنقيطي** : والدليل أن المراد به المتاع الدنيوي قوله تعالى بعد ذلك (وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ) وقوله تعالى في نفس السورة في قصة هود مع قومه (وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلاَ تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ) .

ويدل لذلك أيضاً قوله تعالى (إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى) فإن النعيم الذي له أجل مسمى – أي محدود له أجل ينتهي عنده – هو نعيم الدنيا ، أما نعيم الآخرة فلا منتهى له .

(**إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى**) أي : إلى نهاية حياتكم التي قدرها الله لكم في هذه الدنيا.

الْمُرَادَ بِالْأَجَلِ الْمُسَمَّى : الْمَوْتُ .

- فكل نفس سوف تموت :

كما قال تعالى (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ).

وقال تعالى (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ).

وقال تعالى (أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ).

وقال تعالى (كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ. وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالْإِكْرَامِ).

وقال تعالى (قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذاً لا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلاً).

وقال تعالى (قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ).

- وفي هذا فضل الاستغفار والتوبة إلى الله ، وهو سَبَبٌ لِأَنْ يُمَتِّعَ اللَّهُ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى .

كما في قَوْله تَعَالَى فِي هَذِهِ السُّورَةِ الْكَرِيمَةِ عَنْ نَبِيِّهِ هُودٍ عَلَيْهِ وَعَلَى نَبِيِّنَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ (وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ) .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى عَنْ «نُوحٍ» (فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا) .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً) .

وقَوْله تعالى (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ)

وَقَوْله تعالى (وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ) .

والاستغفار سبب لتكفير السيئات ورفع الدرجات .

قال تعالى (وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُوراً رَحِيماً) .

وفي الحديث القدسي (قال الله : من يستغفرني فأغفر له ..) متفق عليه .

وقوله تعالى في الحديث القدسي (فاستغفروني أغفر لكم) رواه مسلم .

وهو سبب لحصول القوة في البدن .

قال هود لقومه (وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ) .

وهو سبب لدفع المصائب ورفع البلايا .

قال تعالى (وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ) .

وسبب لبياض القلب .

قال ﷺ (إن المؤمن إذا أذنب كانت نكتة سوداء في قلبه ، فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه) رواه أحمد .

من أقوال السلف :

قال بعض العلماء : طوبى لمن وجد في صحيفته استغفاراً كثيراً .

وكان ابن عمر : يطلب من الصبيان الاستغفار ويقول : إنكم لم تذنبوا .

وقال قتادة : إن هذا القرآن يدلكم على دائكم ودوائكم ، فأما داؤكم فالذنوب ، وأما دواؤكم فالاستغفار .

وقال رياح القيسي : لي نيف وأربعون ذنباً ، قد استغفرت لكل ذنب مائة ألف مرة .

وقال الحسن : لا تملُّوا من الاستغفار .

وقال بكر المزَني : إن أعمال بني آدم تُرفع فإذا رُفعت صحيفةٌ فيها استغفار رُفعت بيضاء ، وإذا رُفعت ليس فيها استغفار رفعت سوداء .

وعن الحسن قال : أكثروا من الاستغفار في بيوتكم ، وعلى موائدكم ، وفي طُرُقِكم ، وفي أسواقكم ، فإنكم لا تدرون متى تنزل المغفرة .

قال لقمان لابنه : أيْ بُنَيَّ عوِّد لسانك : اللهم اغفر لي ؛ فإن لله ساعات لا يرد فيها سائلاً .

ورئي عمر بن عبد العزيز في النوم فقيل له : ما وجدت أفضل ؟ قال : الاستغفار .

فائدة :

قال تعالى (وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْراً وَأَعْظَمَ أَجْراً وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ) .

- **قال الرازي** : لم سمى منافع الدنيا بالمتاع ؟

الجواب : لأجل التنبيه على حقارتها وقلتها ، ونبه على كونها منقضية بقوله تعالى (إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى) فصارت هذه الآية دالة على كونها حقيرة خسيسة منقضية .

- **قال الخازن** : فإن قلت قد ورد في الحديث (إن الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر) وقد يضيق على الرجل في بعض أوقاته حتى لا يجد ما ينفقه على نفسه وعياله فيكف الجمع مبين هذا وبين قوله سبحانه وتعالى (يمتعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمى) .

قلت أما قوله ﷺ (الدنيا سجن المؤمن) فهو بالنسبة إلى ما أعد الله له في الآخرة من الثواب الجزيل والنعيم المقيم فإنه في سجن في الدنيا حتى يفضي إلى ذلك المعد له .

وأما كون الدنيا جنة الكافر فهو النسبة إلى ما أعد الله له في الآخرة من العذاب الأليم الدائم الذي لا ينقطع فهو في الدنيا في جنة حتى يفضي إلى ما أعد الله له في الآخرة وأما ما يضيق على الرجل المؤمن في بعض الأوقات فإنما ذلك لرفع الدرجات وتكفير السيئات وبيان الصبر عند المصيبات فعلى هذا يكون المؤمن في جميع أحواله في عيشة حسنة لأنه راض عن الله في جميع أحواله.

(**وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ**) أي: في الدار الآخرة ، أي: ويعط كل صاحب عمل صالح جزاء عمله.

فالمراد بالفضل الأول: العمل الصالح. والمراد بالفضل الثاني الثواب الجزيل من الله- تعالى-.

فالجملة الكريمة، وعد كريم عن الله- تعالى- لكل من آمن وعمل صالحاً .

قال تعالى (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) .

(**وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ**) هذا تهديد شديد لمن تولى عن أوامر الله تعالى ، وكذب رسله ، فإن العذاب يناله يوم معاده لا محالة .

- وفي وصفه بالكبر، زيادة- أيضاً- في تهويله وشدته، حتى يثوبوا إلى رشدهم، ويقلعوا عن غيهم وعنادهم.

(**إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ**) أي: معادكم يوم القيامة .

أي : إلى الله- تعالى- وحده رجوعكم مهما طالت حياتكم، ليحاسبكم على أعمالكم، ويجازيكم عليها بما تستحقونه من جزاء، وهو- سبحانه- على كل شيء قدير، لا يعجزه أمر، ولا يحول بينه وبين نفاذ إرادته حائل.

وما دام الأمر كذلك، فأخلصوا لله العبادة، واستغفروه ثم توبوا إليه لتظفروا بالسعادة العاجلة والآجلة.

(**وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**) أي: وهو القادر على ما يشاء من إحسانه إلى أوليائه، وانتقامه من أعدائه، وإعادة الخلائق يوم القيامة، وهذا مقام الترهيب، كما أن الأول مقام ترغيب.

الفوائد :

١- فضل عظيم للاستغفار والتوبة ، وأنه سبب للحياة الطيبة السعيدة .

٢- الحث على كثرة الاستغفار .

٣- من علامة التوبة المقبولة :

أن يكون بعد التوبة خيراً مما كان قبلها .

أنه لا يزال الخوف مصاحباً له ، لا يأمن مكر الله طرفة عين .

انخلاع قلبه ، وتقطعه ندماً وخوفاً .

٤- أن متاع الدنيا قليل زائل .

٥- أن متاع الآخرة باق لا يزول .

٦- كل نفس ذائقة الموت ، فكل إنسان سوف يموت .

٧- تهديد من تولى وأعرض وكذب بالله ورسله .

٨- شدة يوم القيامة على الكافرين .

٩- إثبات البعث والحساب والجزاء .

١٠- عموم قدرة الله ، وأنه قادر على الإحياء بعد الإماتة ، وعلى جمع الناس وحسابهم .

(**أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٥)**) .

[هود : ٥] .

(**أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْه**) يَثْنُونَ من الثني بمعنى الطى والستر. يقال: ثنيت الثوب إذا طويته على ما فيه من الأشياء المستورة ، وثنى الصدور: إمالتها وطأطأتها وحنيها بحيث تكون القامة غير مستقيمة. والاستخفاء: محاولة الاختفاء عن الأعين، ومنه قوله تعالى يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ ، و(يَسْتَغْشُونَ ثِيابَهُم) أي : يتدثرون ويتغطون بها، مبالغة في الاستخفاء عن الأعين.

وقد اختلف العلماء في سبب نزول هذه الآية على أقوال ذكرها العلماء : ملخصها :

قيل : نَزَلَتْ فِي بَعْضِ الْمُنَافِقِينَ ، كَانَ إِذَا مَرَّ بِالنَّبِيِّ ﷺ ثَنَى صَدْرَهُ وَظَهْرَهُ ، وَطَوْطَأَ رَأْسَهُ وَغَطَّى وَجْهَهُ لِكَيْلَا يَرَاهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيَدْعُوَهُ إِلَى الْإِيمَانِ.

وقيل : نزلت في قوم كانوا لشدة عداوتهم رسولَ الله ﷺ إذا سمعوا منه القرآن حنَوا صدورهم ، ونكسوا رؤوسهم ، وتغشوا ثيابهم

ليبعد عنهم صوت رسول الله ﷺ ولا يدخل أسماعهم شيء من القرآن

وقيل : نزلت في الأخنس بن شريق ، وكان رجلاً حُلو الكلام حُلو المنطق ، يلقى رسول الله ﷺ بما يحب ، وينطوي له بقلبه على ما يسوء.

وقيل : (يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ) أي : يطوونها على عداوة المسلمين ففيه هذا الحذف ، قال ابن عباس : يخفون ما في صدورهم من الشَّحناء والعداوة ، ويظهرون خلافه.

وَقِيلَ : كَانُوا إِذَا عَمِلُوا سُوءًا ثَنَوْا صُدُورَهُمْ وَغَطَّوْا رُءُوسَهُمْ ، يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ إِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ أَخْفَوْا بِهِ عَمَلَهُمْ عَلَى اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا ، وَيَدُلُّ لِهَذَا الْوَجْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى : لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ .

والله أعلم .

والمقصود : أن هذا إخبار عن معاداة المشركين للنبيّ ﷺ والمؤمنين ، ويظنون أنه تخفى على الله أحوالهم .

(**أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ**) أي : ألا يعلم هؤلاء الجاهلون أنهم حين يأوون إلى فراشهم، ويتدثرون بثيابهم، يعلم الله تعالى ما يسرونه في قلوبهم من أفكار، وما يعلنونه بأفواههم من أقوال، لأنه سبحانه محيط بما تضمره النفوس من خفايا، وما يدور بها من أسرار.

(**إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ**) أي : بما فيها من الإرادات ، والوساوس ، والأفكار التي لم ينطقوا بها سراً ولا جهراً ، فكيف تخفى عليه حالكم ، إذا أثنيتم صدوركم لتستخفوا منه .

- ومعنى (ذات الصدور) أي: صاحبة الصدور وهي القلوب، لأنها في الصدور كما قال تعالى (إِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ).

والمعنى: أن الله تعالى يعلم ما في القلوب التي في الصدور وما فيها من المكنونات والخفيات، لأن القلوب عليها مدار التقوى والصلاح كما قال ﷺ (التقوى ههنا) وأشار ﷺ إلى صدره، وقال ﷺ : إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ألا وهي القلب .

- **قال السعدي** قوله تعالى (إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) أي: بما تنطوي عليه من الأفكار والأسرار والخواطر. فاحذروا أن يطلع من قلوبكم على أمر لا يرضاه، أو يصدر منكم ما يكرهه، واعمروا قلوبكم بمعرفته ومحبته والنصح لعباده. فإنكم -إن كنتم كذلك- غفر لكم السيئات، وضاعف لكم الحسنات، لعلمه بصلاح قلوبكم

الفوائد :

١- عموم علم الله لكل شيء .

٢- تهديد شديد ووعيد عظيم لمن يبطن في قلبه الخبث والعداء للإسلام وغيرها من أمراض القلوب .

٣- جهل هؤلاء الكفار ، حيث يعتقدون أن الله لا يعلم ما تنطوي عليه القلوب .

٤- وجوب الإيمان بأن الله يعلم كل شيء .

٥- أن من أيقن بعموم علم الله للسر والعلن ، فإن ذلك يقوده إلى التقوى والإخلاص وطهارة القلب .

قال الشنقيطي : اعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مَا أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ وَاعِظًا أَكْبَرَ ، وَلَا زَاجِرًا أَعْظَمَ مِمَّا تَضَمَّنَتْهُ هَذِهِ الْآيَاتُ الْكَرِيمَةُ وَأَمْثَالُهَا فِي الْقُرْآنِ ، مِنْ أَنَّهُ تَعَالَى عَالِمٌ بِكُلِّ مَا يَعْمَلُهُ خَلْقُهُ ، رَقِيبٌ عَلَيْهِمْ ، لَيْسَ بِغَائِبٍ عَمَّا يَفْعَلُونَ ، وَضَرَبَ الْعُلَمَاءُ لِهَذَا الْوَاعِظِ الْأَكْبَرِ ، وَالزَّاجِرِ الْأَعْظَمِ مَثَلًا لِيَصِيرَ بِهِ كَالْمَحْسُوسِ ، فَقَالُوا : لَوْ فَرَضْنَا أَنَّ مَلِكًا قَتَّالًا لِلرِّجَالِ ، سَفَّاكًا لِلدِّمَاءِ ، شَدِيدَ الْبَطْشِ وَالنَّكَالِ عَلَى مَنِ انْتَهَكَ حُرْمَتَهُ ظُلْمًا ، وَسَيَّافُهُ قَائِمٌ عَلَى رَأْسِهِ ، وَالنَّطْعُ مَبْسُوطٌ لِلْقَتْلِ ، وَالسَّيْفُ يَقْطُرُ

دَمًا ، وَحَوْلَ هَذَا الْمَلِكِ الَّذِي هَذِهِ صِفَتُهُ جَوَارِيهِ وَأَزْوَاجُهُ وَبَنَاتُهُ ، فَهَلْ تَرَى أَنَّ أَحَدًا مِنَ الْحَاضِرِينَ يَهِمُّ بِرِيبَةٍ أَوْ بِحَرَامٍ يَنَالُهُ مِنْ بَنَاتِ ذَلِكَ الْمَلِكِ وَأَزْوَاجِهِ ، وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَيْهِ عَالِمٌ بِأَنَّهُ مُطَّلِعٌ عَلَيْهِ ؟ ! لَا ، وَكَلَّا ! بَلْ جَمِيعُ الْحَاضِرِينَ يَكُونُونَ خَائِفِينَ ، وَجِلَةً قُلُوبُهُمْ ، خَاشِعَةً عُيُونُهُمْ ، سَاكِنَةً جَوَارِحُهُمْ خَوْفًا مِنْ بَطْشِ ذَلِكَ الْمَلِكِ .

وَلَا شَكَّ «وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى» أَنَّ رَبَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَلَّ وَعَلَا أَشَدُّ عِلْمًا ، وَأَعْظَمُ مُرَاقَبَةً ، وَأَشَدُّ بَطْشًا ، وَأَعْظَمُ نَكَالًا وَعُقُوبَةً مِنْ ذَلِكَ الْمَلِكِ ، وَحِمَاهُ فِي أَرْضِهِ مَحَارِمُهُ ، فَإِذَا لَاحَظَ الْإِنْسَانُ الضَّعِيفُ أَنَّ رَبَّهُ جَلَّ وَعَلَا لَيْسَ بِغَائِبٍ عَنْهُ ، وَأَنَّهُ مُطَّلِعٌ عَلَى كُلِّ مَا يَقُولُ وَمَا يَفْعَلُ وَمَا يَنْوِي لَانَ قَلْبُهُ ، وَخَشِيَ اللَّهَ تَعَالَى ، وَأَحْسَنَ عَمَلَهُ لِلَّهِ جَلَّ وَعَلَا .

الجمعة: ٢/رمضان/١٤٣٩هـ